

ياقوت

للأستاذ محمد كرد علي

—•••••—

كان مولد ياقوت عبد الله شهاب الدين في بلاد الروم سنة ٥٧٤ هـ وأخذ أسيراً وهو صبي فقيل له الرومي ، واشتراه في بغداد تاجر يعرف بمسكر الحموي فنسب إليه فقيل له ياقوت الحموي أيضاً . ونشأ نشأة إسلامية فجعله سيده في الكتاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره ، وقرأ شيئاً من النحو واللغة ، وشغله مولاه بالأسفار ثم أعتقه في سنة ٥٩٦ هـ ، فاشتغل بالنسخ بالأجرة ، وحصل بالطالعة فوائد ، وعاد مولاه فأعطاه شيئاً وسفره إلى كيش وعمان ؛ ولما عاد ياقوت من سفرته كان مولاه قد مات ، فأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به ، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً ، وسهل عليه بتجارته أن يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان ، واستوطن مرو ودخل خوارزم وغيرها ، أو كما قال عن نفسه إنه جاب البلاد ما بين جيحون والنيل . وأقام مدة في حلب عند صاحب الأكرم القفطي المصري وزير حلب ، وأهدى إليه كتاب معجم البلدان ، وفي حلب مات سنة ٦٢٦ هـ

لحق ياقوت في حياته هتاء وشقاء ، شهد وقائع التتر في خراسان ، ووصف ما فعلوه في بلاد الاسلام ، وأنهزم منهم لا يولى على شيء ، وفقد ثروته حتى عدم من المفلوكين . وكان مرة في دمشق فتناظر بعض من يتعصب لعلي بن أبي طالب ، وجرى بينهما كلام ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً إلى حلب . وقال عن نفسه إنه كان قدم نيسابور في سنة ٦١٣ هـ وهي مدينة الشاذليخ فاستطابها ، وصادف بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته ، واشترى بها جارية تركية ما رأى أن الله تعالى خلق أحسن منها خلقاً وخلقاً ، وصادفت من نفسه محلاً كريماً ، ثم أبطرته النعمة فاحتج بضيق اليد فباعها فامتنع عليه القرار ، وجانب المأكول والمشروب حتى أشرفت نفسه على البوار ، فأشار عليه بعض النصحاء باسترجاعها فعمد لذلك ، واجتهد بكل ما أمكن ، فلم يكن إلى ذلك سبيل ، لأن الذي اشتراها كان متمولاً ، وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت

منه ، وكان لها إليه ميل يضاعف ميله إليها ، فخطبت مولاه في ردها على ياقوت بما أوجبت به على نفسها عقوبته ، فقال في ذلك قصيدة منها :

أرئنُ ومن أهواه يسمع أنني ويدعو غرامى وجده فيجيب
وأبكي فيكي مسعداً لي فيلتقي شبيب وأنفاس له ونحيب
ومن جملة ما ألف ياقوت من الكتب ثلاثة مطبوعة ، أولها « معجم البلدان » وثانيها « المشترك وضماً والمختلف صقماً » وثالثها « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » أو طبقات الأدباء . رتب معجم البلدان على حروف المعجم ، وذكر فيه أسماء البلدان والنجبال والأودية والقيعان ، والقرى والمحال والأوكان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأوثان مضبوطة بالشكل . واعتمد في تأليفه على من كتب قبله في الجغرافيا من العرب ، وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ، والتقط من أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده في أسفار وحققه بنفسه من أسماء البلدان ما عظمت به فائدته . وفي كل ما كتب ظهرت إجادته وما ينقله عن غيره قد يكون فيه نظر ويتبرأ هو من عهدته . فقد قال مثلاً في مدينة الصفر : ولها قصة بعيدة من الصحة لفارقها العادة ، وأنا بريء من عهدتها ، إنما أكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء . وقال فيما نقل عن الصين : هذا شيء من أخبار الصين الأقصى ذكرته كما وجدته لأضمن صحته ، فإن كان صحيحاً فقد ظفرت بالمرض وإن كان كذباً فتمرف ما تقوله الناس ، فإن هذه بلاد شاسعة ما رأينا من مضى إليها فأوغل فيها وإنما يقصد التجار أطرافها . فكان ياقوت بما ينقل من الأوهام والخرافات إلى جانب الحقائق الثابتة يريد ألا يخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ليستفيد منه الجاهل ، ويتفكك به العالم ، ويتعلم التعلم الأديب ، ويقتبس الباحث . وتوسع خاصة في الكلام على المدن التي أنشأها العرب وحرص على الإلصاق بأخبار فتوح البلاد وحاصلاتها وأموالها وعمرائها وعادياتها ومصاننها وأخلاق أهلها ، وما وقع فيها من الوقائع التاريخية المهمة وما قيل فيها من الأشعار البديعة ، فأمتع قارئه بكل مفيد ، بحسب ما وصل إليه علمه وعلم جيله ، أو قرأه في كتاب ، أو استقرأه بنفسه ونقله عن الثقات . وهذا القسم جماع ماني معجمه مما أدركه في عصره ، أو اقتبس من

الأريب إلى معرفة الأديب) وقد جمع فيه ما وقع إليه من أخبار النحويين واللغويين والنسائين والقراء المشهورين والاختباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط النسوبة وكل من صنف في الأدب تصنيفاً، مثبتاً وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم وأخبارهم وأنسابهم وأشعارهم. قال: فأما من لقيته أو لقيت من لقيه، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا أترك لك بعده تشوقاً إلى شيء من خبره. وقال إنه جمع للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والصريين والشاميين والفريين وغيرهم على اختلاف البلدان، وذلك على جروف المعجم أيضاً. وقال في الاعتذار عن نفسه، وعن يقول له إن الاشتغال بأمر الدين أهم: «إن هذه أخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث، وبصناعتهم نال الإمارة ويستقيم أمر السلطان والوزارة ويعلمهم بيم الإسلام، وباستباطهم يعرف الحلال من الحرام» وإن كتابه هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم، ونزهة لنفوسهم.

وارشاد الأريب من أوسع كتب التراجم؛ وقد لا تتعادل التراجم فيه، فيكتب في الرجل العشرين والثلاثين صفحة حتى لم يبق زيادة لمستزيد؛ وقد يكتب في العظيم أيضاً أسطراً معدودة وخصوصاً في أواخر الكتاب حتى ليظن من لم يقف على ترجمة الترجمة به أنه من المنمورين. وما أدري إن كان أتى ذلك من المؤلف أم من النساخ والناشرين. وعلى كل فارشاد الأريب أو الجزء الذي طبع منه كثر ثمين للأدب، ومنجم فيه الزكاز والذهب، فرائد يلتقطها صاحبها ولا سيما وأن ياقوت نقل من كتب جليلة ضاع بعضها على نحو ما نقل من كتب مراد وقال إن أكثر فوائده معجم البلدان منقول من خزائنها

وقال في كتابه إرشاد الأريب أيضاً: وربما قال بعضهم إنه تصنيف روي مملوك، وما عسى أن يأتي به؟ إن القوم لا ينتظرون ما قيل إنما يسألون عن قال. ولوعاش ياقوت ورأى بعد أكثر من سبعة قرون كتابه معجم الأدباء ومعجم البلدان اللذين لا يستغنى عنهما باحث ولا أديب وأنهما من الكتب الأمهات التي حوت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسناً وتبين حاجة الناس إليها، لا تعبط وعرف أن ما كان يقوله الناس فيه، قالوه في أمثاله في كل عصر ثم ذهب لفظ المتقولين والطاعنين وثبت علم العالمين والتأديبين والباحثين. محمد كرد علي

الأصول المتقنة في خزائن مراد، قال: وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر، وبغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار. وما كان يفارق مراد لولا ما عرنا من ورود التتر إلى تلك البلاد، وما كان لهم من الأثر القبيح في خرابها. ويتألف من الأبيات والقصائد التي استشهد بها ياقوت في معجم البلدان ديوان جميل، يحوي كل ما يفيد من رائق الشعر، وكذلك من عجائب البلدان الخليقة وأخلاق الناس، ودرجة الرفاهية والثروة في عصره، وأفاض في كلامه على البلدان بذكر من خرج منها ونسب إليها من الأعيان، ولا سيما رجال الحديث. وكتابة خاص بلاد الإسلام والشرق وذكر بعض أسماء المدن في بلاد الأفرنج هو يتحفظ فيما ينقل عن حال البلاد الأخرى. ومما قال في الروم: وفي أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن بحقيقتها وضبطها فلم يندر ناظر في كتابي هذا، ومن كان عنده أهلية ومعرفة، وقتل شيئاً بها على، فقد أذنت له في إصلاحه ما جوراً»

أما كتاب «المشرك وضماً والمفترق صقماً» فقد انتزعه نسه من معجم البلدان، واقتصر فيه على ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطاً، ووافق شكلاً وتقطاً، واقرن مكاناً ومجلاً، توفيراً لوقت المطالع الذي يحب السرعة في تلف الفوائد، ويبدأ به عما ذكره في معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والنكت والفوائد والأخبار والأشعار. ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان، وما خلا مع هذا من بضعة مؤلفين حاولوا ذلك وفيهم صفي الدين عبدالمؤمن سمي مؤلفه «مراصد الاطلاع» قال ياقوت في الكلام على اختصار كتابه: اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوى قطع أطرافه فتركه أشل اليدان أبتز الرجلين، أعمى العينين، أصل الأذنين، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً، أو كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً. وقد حكي عن الجاحظ أنه صنف كتاباً وبوبه أبواباً، فأخذ بعض أهل عصره فخذ منه أشياء وجمله أشلاء، فأحضره وقال له: يا هذا إن المصنف كالصور، وإن قد صنعت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فمورهما، أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلتهما، صل الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما، قطع الله يديك، حتى عد أعضاء الصورة. فاعتذر إليه الرجل بجمله هذا المقدار، وناب إليه عن العودة إلى مثله

يق أن نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو (إرشاد